

جامعة البصرة

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم علوم القرآن الكريم

المرحلة الثانية

**السيرة النبوية**

الدكتور: أحمد فرج

من الحوادث المهمة في تاريخ الإسلام ، التي حدثت في ٨ رمضان ، من العام الثامن للهجرة ، بعد ما انتهكت قريش الهدنة التي كانت بينها وبين المسلمين في صلح الحديبية .

وبعد أن أنهى رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) كل التحضيرات لفتح مكة ، كان لا بد من وضع خطة مكملة ، تحتوي على جميع عناصر النجاح والتوفيق ؛ لأن فتح مكة يعتبر آخر ما يمكن للنبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) أن يقوم به في وجه قريش ، وأن تلك فرصة لا يمكن تعويضها ، فإن كل الأسباب صارت مؤاتية لإنهاء وجود الشرك والوثنية في مكة المكرمة ، وببلاد الحجاز .

وكان المعلم الأساس في خطة عمل رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) أن يفتح مكة بسرعة وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء ، خصوصاً أن مكة محرمة على القتل والقتال وسفك الدماء .

كانت سياسة رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) في كثير من حروبها مع أعداء الدين هي اعتماد عنصر المباغلة ، وقد توفر هذا العنصر في فتح مكة أيضاً في اختيار شهر رمضان المبارك ؛ لأن شهر رمضان لا تقع فيه أعمال عسكرية في العادة بسبب إخلاص الناس للراحة في هذا الشهر ، وعكوفهم على العبادة ، وعزوفهم عن الأسفار .

وكما أسلفنا وبعد مرور حوالي السنين على صلح الحديبية أقدمت قريش على نقضه وذلك عندما انضمت إلى حلفائها من قبيلة كنانة التي أقدمت على مهاجمة خزاعة حليفة المسلمين مخالفةً بذلك الهدنة القائمة بين الطرفين بموجب الصلح ، فاستصررت خزاعة رسول الله صلى الله عليه وآلها وسلم ، وشعرت قريش بخطورة المجازفة التي أقدمت عليها فأوقفت أبا سفيان إلى المدينة ، ليؤكد العهد مع رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) وليتقادى نتائج الأحداث ، إلا أن محاولاته في المدينة لم تجد نفعاً بعدما رفض النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) مقابلته لنقضه العهد .

قرر النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) التوجه إلى مكة لمواجهة قريش ، فاستقر أصحابه وجهز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من القبائل .

وقرر أن يتحرك سراً ليهاجم قريشاً ، وليسادر إمكانية الدفاع من يدها ، ولئلا يقع قتال في مكة، فدعا ربه قائلاً (صلى الله عليه وآلها وسلم) : " اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلاده ".

اكتشف حاطب بن بلترة ، وكان من المسلمين ، أن النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) يريد مكة ،

فكتب إلى قريش بذلك وأعطى الكتاب إلى امرأة ، فوضعته في شعرها وتوجهت إلى مكة ، فعرف النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) بهذا العمل الجاسوسي الخطير، وبعث عليها (عليه السلام) والزبير بن العوام ليقبضا عليها، فأدركها في منطقة ذي الحليفة ، وانتزع منها على (عليه السلام) الكتاب بالتهديد والقوة وأرجعها إلى المدينة .

ويقول المؤرخون : إن الله أنزل بهذه المناسبة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوكُمْ أُولَئِكُمْ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقُدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءُكُم مِّنَ الْحَقِّ ... ﴾

تحرك جيش المسلمين في العاشر من شهر رمضان المبارك سنة ثمان للهجرة سراً، حتى وصل إلى مشارف مكة وطوقها .

استخدم النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) الحرب النفسية في هذه الغزوة ، فأشعل النيران على الجبال على مقربة من مكة ، ليشعر قريشاً بقوة وكثرة الجيش ويبثir الرعب في قلوب الطغاة ، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال .

خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ليتجسسوا الأخبار فوجئوا بالنيران تطوق مكة ، وفي هذه الأثناء التقى العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان في الطريق خارج مكة فأشار عليه أن يذهب به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) ، وبعد أن أخذ له الأمان رتب له لقاءً مع النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) وحصل اللقاء صبيحة اليوم التالي، فقال له النبي (صلى الله عليه وآلها وسلم) : ويحك يا أبي سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله صلى الله عليه وآلها وسلم ؟ قال : أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

تدخل العباس لإنقاذ أبي سفيان فخاطبه قائلاً له : ويحك أسلم وشهاد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فشهد بذلك ، وفي نفسه من نبوة محمد (صلى الله عليه وآلها وسلم) أشياء وأشياء وظللت تلك الأشياء إلى أن مات .

وقد حاول العباس أن يتعامل مع التركيب النفسي لشخصية أبي سفيان ويوجه موقعه الاجتماعي لصالح الفتاح المبين فقال لرسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) : " يا رسول الله إنه يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون في قومه ".

فأمر (صلى الله عليه وآلها وسلم) من ينادي في الناس: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن " .

بعد أن أعطاه الرسول (صلى الله عليه وآلها وسلم) هذه الميزة إرضاءً لخصلة الفخر في نفسه ، أخذه العباس إلى المكان الذي عينه له رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) ليرى جنود الله وهي تمر أمامه في استعراض عسكري لإظهار القوة لم تعهد له مكة نظيرًا من قبل .

ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآلها وسلم) مكة بتلك الحشود التي تتساب خلفه فاتحًا من غير قتال ، فلما انتهى إلى الكعبة تقدم على راحلته فاستلم الركن وكبير، فكثير المسلمين لتكبره، ثم طاف بالبيت، وكان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنمًا وكان هبل أعظمها، فقال لأمير المؤمنين (عليه السلام) : " يا علي اصعد على منكبي أعطني واهدم الصنم " ، ففعل ذلك ، وفي رواية أنس قال : " يا علي كفأ من الحصى ، فقبض له أمير المؤمنين (عليه السلام) كفأ فناوله ، فرمها به وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، مما بقي منها صنم إلا خر وجهه ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد فطرحت وكسرت ، ثم أمر أن تفتح الكعبة ففتحت له ودخلها فصلى فيها وأزال كل ما كان فيها من تماثيل وصور ثم أشرف من بابها على الناس وقال (صلى الله عليه وآلها وسلم) : " الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة أو ديم أو رباء في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسفاقية الحج" ، ثم توجه إلى المكينين وسألهم: ماذا ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال (صلى الله عليه وآلها وسلم) : " إنني أقول لكم ما قال أخي يوسف لأخوه، لا تترتب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فألتكم اللقاء " .

وبذلك ضرب الرسول (صلى الله عليه وآلها وسلم) للأجيال في كل عصر وزمان مثلاً في الرحمة والعفو والترفع عن الحقد والانتقام .

\*\*\*\*\*

### معركة حنين :

وقدت هذه الغزوة بعد فتح مكة مباشرة وذلك في السنة الثامنة للهجرة في منطقة حنين، بين جيش المسلمين بقيادة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآلها وسلم) من جهة وبين المشركين من قبيلتي هوازن وتنقيف من جهة أخرى الساكنين في منطقة الطائف ، حيث مالت كفة الحرب في بدايتها لصالح المشركين بسبب الخطة التي اعتمدها المشركون وحضور المسلمين الجدد في المعركة ، والتي كادت أن تعصف بجيش المسلمين وتنتهي بمقتل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآلها وسلم) ، إلا أن المسلمين أعادوا تنظيم

صفوفهم ورجعوا مرة أخرى إلى المعركة بقوّة ليكون النصر حليفاً لهم في نهاية المطاف مستولين على كثير من الغنائم والأسرى .

**سبب الغزوة :**

بعد فتح مكة واستسلام معظم أهلها ، أو إسلام القبائل المحيطة بمكة فضلاً عن قبائل قريش ومشايخها ، إلا (هوان) و(تفيف) فإنهم عتوا عن أمر رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وفكروا في اجتياح المسلمين والإغارة عليهم ، فاجتمعوا وجمعوا الجموع والسلاح وقالوا : إنَّ مُحَمَّداً قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم ، ونحن أولوا بصيرة في الحرب وتجربة في القتال ، فسوف نغلبه ، ثم عزموا على قصده قبل أن يقصدهم ، وقالوا : قبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه ، وفي رواية أخرى : كانت تفيف وهوان قد جمعوا قبل ذلك حين سمعوا بخروج رسول الله من المدينة ، وهم يظنون أنه إنما يريدهم حيث خرج من المدينة ، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة ، أقبلت هوان عامدين إلى النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وأقبلت معهم تفيف ، وقد اختاروا قائداً لهم يدعى مالك بن عوف النصري الذي عُرف بالفروسيّة والشجاعة ، حتى نزلوا حُنَيْنًا ، فكان من تدبير هذا القائد أن اقترح على جيشه أن يجعلوا النساء والأطفال والأموال وراء ظهورهم وعندما سأله عن علة ذلك الآراء قال : "أردت من جعل كل رجل أهله وماله وولده ونساءه خلفه حتى يقاتل عنهم" ، وقد خالف شيخ مُجرب حنكته الحروب منهم يدعى "درید بن الصمة" هذه الخطة عندما سمع رغاء البعير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ، وجادل فيها مالكاً ، واعتبرها خطة فاشلة من الناحية العسكرية وقال للناس : "يا قوم إن هذا فاضحُكم في عورتكم ، وممكّن منكم عذّوكم ، وهل يرد المنهرم شيء" ، ولكن مالكاً لم يعر كلام هذا الشيخ ونصيحته اهتماماً وقال : - وهو يتهمه بالجهل بفنون القتال الحديثة - : "إنك قد كبرت ، وكبر علمك ، وحدث بعدك من هو أبصر بالحرب منك" .

ولقد أثبتت المستقبل صحة ما قاله ذلك الشيخ المحنك ، فإن إشراك النساء والأطفال والأنعام في الحرب ، وإخراجهم إلى ساحة القتال أحدث لمقاتلي تفيف وهوان مشاكل كثيرة ، فيما بعد فقبل المشتركون في تلك العملية بأمر قائدتهم هذا بالإجماع ، وجعلوا أموالهم وأهليهم خلفهم .

ثم إن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لما سمع بتحركات هاتين القبيلتين بعث "عبد الله بن حدرد الإسلامي" ، وأمره أن يدخل في هوان وتفيف فيقيم فيهم حتى يعرف بنو آيهم وخطفهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق الرجل إليهم ثم عاد إلى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بأخبارهم .

وكان "مالك بن عوف" قائداً هوازن وتقيف قد بعث بدوره ثلاثة جواسيس ليتجسسوا له على المسلمين ، ويأنوه بأخبارهم ، فعادوا بأجمعهم فزعين مما شاهدوه من قوة المسلمين وكثتهم .

فقرر قائداً العدوَ أن يجبرُ ضعف جنوده وقتلهم باستخدام الخدع العسكرية، والتسلل بأسلوب المباغة ليفرق - بهجوم مفاجئ - صفوف المسلمين، وبهدم نظامهم وانسجامهم، ويصييهم بالهرج والمرج ، والفوضى والخيرة ليختلط باختلال الجيش أمر القيادة ، فلا تتمكن من ضبط الأمور ، وتحقيق انتصار على المسلمين .

ولتحقيق هذا الهدف هبط "مالك بن عوف" بجيشه في وادٍ ينحدر إلى منطقة "حنين" ، وأمر بأن يختفي الجنود والمقاتلون خلف الصخور والأحجار ، وفي شغاف الجبال ، وكل ما ارتفع من ذلك الوادي ونشر ، حتى إذا انحدر جنود في هذا الوادي في غفلة من هذا التدبير ، خرج رجالٌ هوازن وتقيف من مكامنهم ، وكمائنهم ، ورموا المسلمين الغافلين عن خطة العدو ، بالحجارة والنبل ، ثم يخرج إليهم فريق في أسفل الوادي ويضربونهم بالسيوف .

وقد خرج رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إِلَى حَنِينٍ يَوْمَ السَّبْتِ ، فِي الثَّالِثِ مِنْ شَوَّالٍ ، سَنَةُ ثَمَانٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَوَصَّلَ إِلَيْهَا مَسَاءَ لَيْلَةِ الْثَّلَاثَاءِ ، فِي الْعَاشِرِ مِنْ شَوَّالٍ .

كان الجيش الذي سار به رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) إلى هوازن يبلغ ١٢ ألفاً من الجنود المسلمين : عشرة آلاف هم الذين صحبوه من المدينة ، وشاركوا في فتح مكة ، وألافان من رجال وشباب قريش الذين أسلموا بعد الفتح ، وقد أوكل النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قيادتهم إلى أبي سفيان .

ولقد كان مثل هذا الجيش العظيم والجمع الكبير قليل النظير ، ونادر المثل في تلك العصور ، وقد صارت هذه الكثرة ذاتها سبباً في هزيمته في مبدأ الأمر ، فقد أُعجب أفراد هذا الجيش بكثتهم على خلاف ما مضى فتجاهلو التكتيكات النظمية الدقيقة ، وغفلوا عن خطط العدو ونواياه فكان ذلك داعياً إلى هزيمتهم !! ، فقد قال أبو بكر لما رأى كثرة المسلمين : لو لقينا بني شيبان ما باليها ، لن نُغلَبَ اليوم من قلة ، ولكنه لم يكن يعرف أن الانتصار ليس هو بكثرة الأفراد وضخامة الجيش، بل إن هذا العامل غير مهم بالقياس إلى بقية العوامل .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُذْبِرِينَ﴾ .

**تجهيزات المسلمين :**

كان رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عارفاً بقوَّةِ العدُوِّ وعندَهُ فدعا "صفوان بن أمية" قبل مغادرة مكة ، واستعار منه مئة درع بأداتها كاملة ، وسار خلف جيشه وسار حتى دنوا جميعاً من الوادي فاسترحاوا ليلتهم عند فم الوادي ، ومع غلو الصبح انحدرت كتيبة "بني سليم" بقيادة "خالد بن الوليد" في وادي "حنين" ، وبينما دخل أكثر الجنود ذلك الوادي حمل عليهم رجالٌ هوازن من كمائهم في مضيق الوادي وشعابه حملة رجل واحد، وأخذوا يرشقونهم بالحجارة والنبل ، فألقت أصواتُ الحجارة والنبل فرعاً شديداً في قلوب المسلمين الذين مُطروا بالسهام والنبل والحجارة من جانب ، بينما احتوشهم فريق آخر من هوازن بسيوفهم ووقعوا فيهم ضريباً وقتلاً .

أجل لقد فعلت مكيدة هوازن فعلتها في قلوب المسلمين ، فقد أوحشتها ، وأصابت المسلمين بالفوضى ، وخللت صفوفهم فلاذوا بالفرار من دون اختيار ، وقد أخلوا هم بنظامهم أكثر من ما فعله العدوُّ بهم.

فرح المنافقون في جيش رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) لهذا الحادث ، وسرروا به سروراً عظيماً حتى قال أبو سفيان شامتاً : " لا ينتهي هزيمتهم دون البحر " ، وقال كلدة بن حنبل : " ألا بطلَ السحرِ اليوم " ، وقال آخر : " لا يجترها محمدٌ وأصحابه " ، وعزم شيبة بن عثمان على اغتيال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في ذلك الوضع المضطرب وإطفاء شعلة رسالته المقدسة .

**استقامة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ومن ثبتَ من أصحابه :**

لقد أزعج فرار المسلمين الذي كان نابعاً في الدرجة الأولى من الفزع والفوضى التي أصابتهم - رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) ، وأدرك بأنه لو تأخر لحظة واحدة عن فعل ما يجب أن يفعله لتغير وجه التاريخ ولتبدل مسار البشرية، ولحطّم جيش الشرك جيش التوحيد .

من هنا صاح بأعلى صوته وهو على بغلته : " يا أنصار الله وأنصار رسوله أنا عبدُ الله ورسوله " .

قال هذا واندفع ببغلته إلى ساحة القتال في المكان الذي جعله "مالك" وجنوده مسرحاً لمهاجمة المسلمين وبما غنّتهم وقتلهم، ومشى معه من لازمه في تلك اللحظات وثبتوا معه كعلي بن أبي طالب (عليه السلام) والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، الذين لم يغفلوا عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) منذ بدء القتال لحظة واحدة ، وأمر رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) عمّه العباس الذي كان صاحب صوت عظيم أن ينادي في المسلمين الذين كانوا يواصلون فرارهم، ولا يلوون على شيء : " يا معشر